السنة السادسة والخمسون والأربع مئة

فيها في مستهل المُحرَّم استقرَّ أمر مسلم بن قريش، وأُعطي من البلاد ما رضي به، وطلب أن يحضر إلى بيت النُّوبة ليخلع عليه، فأجاب ثم امتنع وتعلَّل، فبعثوا إليه بالخلَع، فلبسها وحلف، وزالت الوحشةُ، واطمأنَّ الناسُ، ورجعت العساكر إلى بلادها، ودخل أبو علي بن موسك وأبو الحسين بن عيسكان إلى الديوان، وخلع عليهما الفَرَجيَّات المُذهَبات والعمائم، وبعث لمسلم اللواء والمركب الذهب وغير ذلك، فلمَّا عاد عميد الملك من حصار قُتُلْمِش بكَرْدكوه نزل قُتُلْمِش من القلعة، وسار إلى التركمان، فنزل عليهم، واستجاش بهم، فنزل إليه أكبرهم، فقوي جأشُه، وانصرف إليه كلُّ مفسد، فسار إلى ساوة ومعه خمسون ألف فارس، وكاتب الأمراء بالاستمالة، فأجابه سُرْخاب بن كامرو، ورحل في الليل هارباً إليه، وبعث إليه أخاه فجسر على قصد الري، وكان أبو نصر الدِّهِسْتاني الملقب نظام الملك عند قُتُلْمِش معتقلاً، ولمَّا علم عميد الملك ما فعل قُتُلْمِش، وأنَّ ألب أرسلان قد توجَّه من نيسابور يريد الري، كاتبه واستمدَّه، واستخرج أمره فيما يفعل، وأقيمت له الخطبة بالري كما ذكرنا، وجاء قُتُلْمِش حادي عشرين ذي القعدة، فأشرف على الري، فخرج إليه عميد الملك والعسكر، فالتقوا، وقصدهم، وكان في المقدمة الأمير ابنابجيل، فأُسِرَ وأُسِرَ معه جماعةٌ خمسُ مئة غلام، وانهزم عميد الملك، ودخل البلد، وعاد العسكر إلى البلد فضبطوه، وجاء التركمان فحاصروه، وقطعوا الموادعة، وأشرف الناس على خِطَّة صعبة، وأنفد عميد الملك عدة جَمَّازات إلى ألب أرسلان، فجاء جوابه: لا تخرجوا من البلد، فأنا واصلٌ إليكم. وعمل التركمان كلَّ قبيح ومنكر، ووصلت مقدمات ألب أرسلان إلى الدامغان مع الحاجب أردم، فرحل قُتُلْمِش سلخ ذي القعدة بمن معه، وساروا يطلبون العسكر الوارد ليفرغوا منه ويعودوا إلى الري، فصادفوا أردم بمكان يقال له: قرية الملح، فقتلوا جماعةً من أصحابه، وتحصَّن بالقرية، وبعث إلى ألب أرسلان يخبره، وكان على فرسخين منه، فرحل إليه فلحقه، ووقع القتال، واشتدَّ الأمر، وكثرت القتلى، وأنزل الله نصره على ألب أرسلان، فانهزم قُتُلْمِش والتركمان، وركبهم السيف مسيرة أربعة فراسخ، وأُرسِلَ رسول تكين أخو قُتُلْمِش وابن قُتُلْمِش

الأكبر وعدةٌ من الأكابر، واستخلصوا نظام الدين والأمير ابنابجيل ومن أُسِرَ بباب الري، وغنموا أموالهم وجميع ما كان معهم، وسار ألب أرسلان يطلب الري، وبعث إلى عميد الملك بالخِلَع، ورسم بأن ينقل طُغْرُلْبَك من الدار إلى التربة وينظف الدار لينزل بها، فكان عميد الملك ينزل في دهليز الدار في حجرة، فاستأذن في الانتقال منها، فقال ألب أرسلان: سروري قربُكَ، فكيف تبعُد عنا؟ ولم يأذن له في الانتقال، وأما قُتُلْمِش فإنه أفلتَ من الوقعة، وترك الطريق المسلوك، وتعسَّف الجبال والمضائق، ومرَّ على بعض قلاع السلطان، فأرسل صاحبُ القلعة وراءه، فساق فرسه، فسقط به وداسه، فتقيَّأ الدم ومات، فحُمِل إلى الري يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجة، وخرج عميد الملك للقائه، فأكرمه وقرَّبه وأدناه، ونزل إليه ألب أرسلان في دار المملكة، ولازم عميد الملك خدمته طول النهار على عادته مع السلطان، وثقُلَ ذلك على نظام الملك أبي علي الوزير، وشرع عميد الملك في قبض جماعة من حواشي طُغْرُلْبَك وخدَمِه، فجمع منهم خمس مئة ألف دينار، وسببه أن ألب أرسلان عتب عليه فيما أخرجه من مال القلعة، وأطلقه للعساكر، فقال: ما أمكنني غيرُ ما فعلتُه، وأنا أردُّ بمقدار ما أخرجتُ. فصادر الأعيانَ والخُدَّام.

وفي يوم الخميس خامس المُحرَّم من هذه السنة عمل السلطان بالري سِماطاً عظيماً في دار المملكة، ومَدَّ بين يديه السِّماط الذي كان لطُغْرُلْبَك ووزنه ألفا ألف مثقال، وجلس في مرتبة عظيمة، وخلع على جميع الأمراء والحُجَّاب، ولمَّا بلغ خبرُ عميد الملك واستقامةُ أحواله إلى بغداد سأل دُبيس في العميد أبي سعيد والإفراج عنه [فأفرج عنه][1] في المُحرَّم، فخلع عليه ابنُ جَهير جُبَّة ديباج وعمامةً بيضاء، وانصرف إلى داره، وكان يبدو منه تهدُّدٌ على ما عُومِل به.

وفي يوم السبت سابع عشر المُحرَّم قبض ألب أرسلان على عميدِ الملك آخر النهار، واستولى على أعماله وأمواله، وبعث به إلى مرو الرُّوذ فاعتقله بها، وخلع على وزيره نظام الملك أبي علي الحسن بن إسحاق الطوسي في هذا اليوم، وراسل السيدةَ بنت الخليفة بالإذن لها في المسير إلى بغداد، وقيل: إنَّ تعويقها كان من عميد الملك،

(١) هذه الزيادة من (ف).

فخرجت من وقتها إلى دار المرتضى نقيب العلويين بالري، ثم سارت من عنده إلى ساوة، وبعث إليها خمسة آلاف دينار للنفقة، فامتنعت من قبولها، فقيل لها: هذا قبيح فقبلتها، وقيل لها عن نظام الملك الوزير: إنما قبض على عميد الملك لما فعله في حقِّكِ ونقلكِ إلى الري. وسيَّر في خدمتها جماعةً من الأعيان إلى بغداد، وأنفذ أبا سهل محمد بن هبة الله ـ ويُعرف بابن الموفق ـ في صحبتها، والخطاب في إقامة الدعوة لألب أرسلان، وترتيب مَنْ يقوم بالنظر في الحضرة، فتوفي ابن الموفق بالموذقان، فعدل إلى رئيس العِراقَين[1] أبي أحمد النهاوندي، وتقدَّم إليه بالمسير معها، فامتنع، فأُلزِم، فسار مسيرَ مُكْرَهٍ على غير اختيار، وكتب معه كتاباً إلى الخليفة بإقامة الخطبة، ووصلت إلى بغداد في ثالث عشر ربيع الأول، ودخلت ليلاً إلى الدار، وخرج الخدم والحاشية لتلقِّيها، وكانت قد نزلت بالراوودية على نصف فرسخ من بغداد، فخرجت إليها والدتها والخدم والقَهْرمانة، ودخلت ليلاً، وسُرَّ القائمُ بدخولها، وكان قد وصل في خدمتها القاضي أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن وأسكين الحاجب، وحضرا بيت النُّوبة، وسأل قاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني أن لا يقعد القاضي أبو عمرو فوقه، فقيل: هذا ضيف، وقد وصل بالجهة، فلا سبيل إلى ذلك. وقام أبو الحاجب وسلَّم إلى الوزير كتابين كانا معه، كتاب إلى الخليفة، وكتاب إلى الوزير، فخرج الجواب يتضمن الشكر للملك عضد الدولة ألب أرسلان، ويفيد بخدمته في شبيه السيدة، فإنه وقع في موقعه، وتقدَّم إلى الخطباء بالخطبة على المنابر، وأقيمت الدعوة يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر، وكانت الخطبة على المنابر: اللهمَّ وأصلِحِ السلطانَ المعظَّم شاهنشاه الأعظم ملك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياءَ الدين، غياثَ المسلمين، ظهيرَ الإمام، كهفَ الأنام، عضُدَ الدولة، وتاجَ المِلَّة، أبا شجاع الدين، رسلان محمد بن داود برهان أمير المؤمنين. وصحب هذا القاضي كتبٌ إلى الأطراف إلى: مسلم بن قريش، ودُبيس بن مَزْيَد وابن ورَّام وغيرهم، فأجابوه بالسمع والطاعة، وكان ورد قبل السيدة صاحبٌ لرئيس العِراقَين النهاوندي يُعرف بمظفر، فكتب إلى الديوان والوزير فخر الدولة متضمنةً للخدمة، وأنه قدِمَ مظفرٌ أمامه إلى حين وروده، فتقدم إليه الوزير بتسليم المعاملات وتمكينه من النظر والتصرف الذي يتعلَّق

(١) العِراقان: الكوفة والبصرة.

به، وتمادت الأيام بوصول رئيس العِراقَيْن، ثم ورد من أخبر أنه مقيم بهَمَذان، ولا رأيَ له في العراق.

وفي هذا الوقت وردت الكتب بأن السلطان ألب أرسلان دخل خلف الأكراد اللوذية، وكانوا يقطعون الطرق، فأوغل خلفهم في الجبال، فظفر بهم، وغنم العسكرُ أموالَهم، وأقام بمكانه، وكتب إليه من بغداد بإقامة الخطبة، فسُرَّ سروراً عظيماً، وسجد شكراً لله تعالى، وبعث العميدُ أبا الحسن علي بن عيسى، وأصحَبَه عشرة آلاف دينار ومئتي ثوب إبريسمية أنواعاً، وحوالةً على الناظر ببغداد بعشرة آلاف دينار أخرى وعشرة أفراس وعشر بغلات، ووصل العميد إلى بغداد تاسع جمادى الأولى، والتقاه عميد الدولة بن فخر الدولة بن جَهير، ووصل إلى باب النُّوبي، ونزل وقبَّل العتبة، ثم مضى إلى دار المملكة فنزل بها، وكان معه توقيعٌ لخاتون السفرية لألب أرسلان بما كان من الإقطاع لزوجة طُغْرُلْبَك التي صار إلى السيدة بنت الخليفة، فامتنع الخليفة من الإفراج عنها، وقال: في هذا غضاضة وقباحة، ولهذه في أموال ركن الدين الذي خلفها حقٌّ بحسب هذا القدر منه. فوقع الإمساك حينئذ عنها، وطلب القاضي النقش على السِّكَّة والخِلَع، فنقش اسم ألب أرسلان على السِّكَّة، وأمَّا الخِلَع فتوقَّف أمرُها، واحتجَّ بأن منها صناعاتٍ وآلاتٍ تحتاج إلى مدة طويلة، والخزائن خالية، فإن كان المراد التعجيل نفذنا فَرَجيَّةً وعمامةً ولواءً، وإن أردتم الخِلَعَ السلطانية فأقِمْ يا محمد ابن عبد الرحمن ـ يعني القاضي ـ حتى تستوي وتُكمل، وهذا أمرٌ مردودٌ إليك، ثم استقرَّ الأمر على ما يُذكر إن شاء الله تعالى.

وكان ألب أرسلان قد سأل أن يكاتبه الخليفة بالولد المؤيَّد، فنقشوا على السِّكَّة كما يدعون في الخطبة، ومن جانبٍ اسمَ القائم، وما جرت به العادة، ولقَّب الخليفةُ إلياسَ بن ألب أرسلان الأميرَ، شهابَ الدولة، قطبَ الملة. وملك شاه طريدَه[1] جلالَ الدولة وجمال الملة.

وبِيعَ بواسط دارٌ بدرهم ودانقين ونصف، فاستزاد البائع [المشتريَ] قيراطاً ليتمَّ ذلك درهماً ونصفاً، فلم يفعل، وسببه استيلاء[2] الخراب عليها [واتصال ما يقتضي من قبيح الأسباب].

---

(١) يعني طريد أخيه إلياس، والطَّريد: الرجل يولد بعد أخيه، فالثاني طريد الأول. معجم متن اللغة ٣/ ٥٩٦ .

(٢) في (م) و(م١): اتصال.

وقد بيعت دارٌ من نهر طابق ببغداد سنة ثمان وأربعين وأربع مئة بثلاثة[١] قراريط.

وفي ربيع الأول شاع ببغداد أنَّ قوماً من الأكراد خرجوا متصيِّدين، فرأوا في البرية خِيماً سوداً سمعوا منها لطماً شديداً، وعويلاً كبيراً، وقائلاً يقول: قد مات سيدوك ملك الجن، وأيُّ بلدٍ لم يُلْطَمْ عليه فيه، ويُقام المأتم، قُلِعَ من أصله، وأُهلِكَ أهلُه. فخرج النساء العواهر إلى قرب الحَلْبة وباب أبرز يلطِمْنَ ويُمزِّقْنَ ثيابهنَّ وينشرن شعورهنَّ، ويخمِشْنَ وجوههنَّ، وأقمْنَ ثلاثة أيام على ذلك، [واجتمع إليهنَّ العدد الكثير][٢].

وقال القاضي ابن السماك أنه شاهد رجالاً قد شوَّشوا عمائمهم، وفتقوا جيوبهم لذلك، ثم وردت الأخبار بأن واسطاً وأعمالها وبلاد العراق جميعَها وخوزستان وغيرَها من البلاد على مثل ذلك، وتعدَّى إلى بغداد، وأصعد إلى الموصل وديار بكر وغيرها من الأقطار[٣].

ذِكْرُ إنفاذ الخلع إلى ألب أرسلان:

لمَّا وقع الفراغ من الخلع سأل العميد الخليفة الجلوسَ العامَّ والمشافهةَ بتقليد ألب أرسلان وتسليم الخلع إلى الرسول بمشهدٍ من الخاصِّ والعام، فجلس يوم الخميس في دار الخلافة في البيت المتصل بالتاج المشرف على دجلة، واستدعى الوزير والقاضي والعميد، وسلَّم إليهم الخلع والعهد على ما جرت به العادة، وشافههم بأنه قد فوَّض الأمور إلى عضد الدولة، وجهَّز معهم الكاملَ نقيبَ العباسيين وأبا محمد التميمي وموفق الخادم الخاص، وخرجوا بذلك، وكان في كتاب الخليفة بعد البسملة: من عبدالله أبي جعفر الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الوليد المؤيد شاهنشاه الأعظم، ملك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين، غياث المسلمين، ملك الإسلام، ظهر الإمام، كنف[٤] الأنام، عضد الدولة القاهرة، وتاج الملة الباهرة، ألب أرسلان، أبي شجاع، محمد بن داود بن ميكائيل، سلطان ديار

(١) في (م) و(م١): بأربعة، والمثبت موافق لما في المنتظم ١٦/ ٨٧.

(٢) الخبر بمعناه في المنتظم ١٦/ ٨٧.

(٣) المثبت من (م) و(م١)، وفي (ف): الأوطان، وفي (خ): الأبطال.

(٤) في (ف): كهف.

المسلمين، برهان أمير المؤمنين، سلام الله عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصلِّيَ على محمد عبده ورسوله ويُسلِّمَ تسليماً، أما بعد، أطالَ اللهُ بقاءَك، وأدامَ عِزَّك وتأييدَك ونعمتك، وأحسنَ رعايتَك وكلاءتك، وأمتع أميرَ المؤمنين بك، ولا أخلاه منك، ثم ذكر بَعْثَ النبي ﷺ وما جرَتْ به العادة، وأنه وارِثُه وما أشبه ذلك، ثم قال: وإن أمير المؤمنين بما وكَلَه الله إليه من الأمور العامة للبلاد والعباد، وملَّكَه من زمام الإصدار والإيراد، وناطَه به من حفظ النظام، وفرضه عليه من السعي في الصلاح الشامل العام، يرى استنفاذ الوُسع في اختيار مَنْ يستنيبه في الأراضي، ويلقي إليه مقاليدَ البسط والقبض، ويحبوه بالمرتبة التي طال ما امتدت نحوها الآمالُ فخابَتْ، وطمع في وفاء الأقدار في وعود المنى فحابَتْ، وإذا لاحت شواهدُ الكمال فيمن استدعى العزَّ فأجابه، ورمى الغرض فأصابه، وعضد ذلك بالإخلاص في الطاعة، وبلغ أقصى الثناء والحمد داخلاً في نظام الجماعة، غدا[1] التوفيق زائراً في اختصاصه بالمنزلة التي تعجز الأماني عن ارتقاء هضابها، ويقصر الباع عن الامتداد إلى التشبُّث بأهدابها، فأهَّلَتْه لما يجتني به ثمرةَ سوابقه ولواحقه، ويجتلي به العزُّ في أنضر رياضه وحدائقه إبداعاً للصنائع عند الأكفاء، وإبداء للمواضع بأعباء الإخلاص الناهضين والاستكفاء، ولمَّا احتويْتَ عليه هذه الخلالَ وأوفيْتَ، وحَمَيْتَ منهلَ الطاعة من القذى وأصفَيْتَ، وأعدْتَ في الهدى وأبديْتَ، وحُزْتَ قَصْبَ السَّبَق وانتهيت، فوَّض إليك أميرُ المؤمنين أزِمَّة الحلِّ والعقد، وأمطاك ذُرى العلا والمجد، وأوصلك إلى ما لم يُدَرَّ له به أمل، ولا فاز بثوابه عمل، واستنابك فيما وراء بابه شرقاً وغرباً، وحصل بما تملك به نواصي الأعداء سلماً وحرباً، وبعث إليك بالتشريف مبالغةً في الإكرام، ودلالة على فضل الشغف بك والغرام، والعهد الذي يضمن الولاية، وبلَّغك به منتهى العناية، فأسعدكَ اللهُ بهذه الموهبة التي لا توازيها نعمةٌ وإن جلَّتْ، والمنحة[2] التي بدَتْ في جلال الكمال وتجلَّتْ، وذكر كلاماً طويلاً، ثم لقَّب الخليفةُ للعميد أبا الحسن شيخ الدولة ثقة الحضرتين، ولقَّب نظامَ الملك قُوام

(١) في (خ): عدم، والمثبت من (ف).

(٢) في (خ): والمنجمة، والمثبت من (خ).

الدين والدولة، رضيَّ أمير المؤمنين، وهو يذكر في تلك الديار نحو آغابزرك، وكان مسيرهم ثاني عشر جمادى الآخرة، وخرج معهم أبو سعيد النائب في العراق، كان وجماعة من رسل الأطراف والأمراء من العرب وغيرهم.

وفي هذا الشهر قدم رئيس العِراقَين أبو أحمد النهاوندي وأيتكين السليماني إلى بغداد، وأخرج الخليفةُ لتلقيهما الخدمَ والحجَّابَ، ولمَّا وصل أبو أحمد إلى باب النُّوبي نزل وقبَّل العتبة، وانصرف إلى دار المملكة، واعترض كلَّ مصعد ومنحدر، وأدخل يده في الأعمال، فعزَّ على الخليفة، فاستدعاه إلى بيت النُّوبة، وخاطبه الوزيرُ ابنُ جَهير وأغلظ له، وكذلك فعل بأيتكين، وانصرفا على هذه الحال، وراسل رئيس العِراقَين الخليفةَ بالشكوى من ابن جَهير والاستعفاء من الحضور معه، وقال: إن هذا قد نقل الدولة التركية إلى العربية، واستدعى بني عقيل إلى العراق، وفعل في ذلك ما سار في الآفاق، والسلطان غيرُ مؤثرٍ له، فعزَّ على الخليفة، وخرج الجواب بالثناء على الوزير والشكر له، وقال: قد كان له في ذلك الأمر المقام المحمود، وإنما له أعداء يتخرَّصون عليه، وأدخل النهاونديُّ يدَه في إقطاع الوزير وأسبابه، وأوقع الهوانَ بأصحابه، ومدَّ يده إلى الضياع العليا والسفلى.

وفي هذا الوقت عاد محمود ابن أخي عطية إلى حلب، فانكسر عطية، وعاد إليها مفلولاً، وحاصره محمود حصاراً شديداً، وعدمت الأقوات.

وفي شعبان هجم قوم من أصحاب عبد الصمد الزاهد ببغداد على أبي علي بن الوليد المعتزلي، وسبُّوه وقالوا: هذا يقول: القرآن مخلوق، ويعتقد اعتقاد الفلاسفة، وأنَّ الإنسان قادرٌ على أفعاله، وأنَّ الله يُخلِّد في النار على الذنوب اليسيرة، ولا يَرى يوم القيامة، ولا يصلي في الجامع، ويدرس مذهب المعتزلة، واعتقلهم النهاوندي وقال: يقدمون على الفتن. وأجاب ابن الوليد عن ما قالوه عنه، وأنهى حالَه إلى الخليفة، فخرج الجواب بالإمساك عنه، وجلس في بيته وأغلق بابه، ووردت أخبار الرسل أنهم نزلوا توريز، وأن نظام الملك إلى نَخْشُوان[1] وهي آخر ثغور الإسلام، وأن أخبار

(١) هكذا في النسختين (خ) و(ف): نَخْشُوان ـ بالشين ـ وذكرها ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٢٧٦ : نَخْجُوان ـ بالجيم بدل الشين ـ ثم ذكرها ٥/ ٢٩٨ : نَقْجُوان ـ بالقاف بدل الخاء، وبعدها جيم ـ وهي بلد في أقصى أذربيجان.

السلطان مستعجمة، وأنه منذ دخل بلاد الأرمن قد مضى له شهران لم يوقَفْ له على خبر.

وفيها وقعت فتنةٌ عظيمةٌ بين عبيد مصر والترك [قال محمد بن هلال: وفي ثاني عشر جمادى الآخرة أو الأولى ورد كتاب من مصر من بعض التجار يقول: إن العبيد اجتمعوا بالجيزة منافرين للأتراك، عازمين على القتال، وغلبوا على الجزيرة التي في وسط النيل بين مصر والجيزة] واتصلت الحرب بين الفريقين، ووصل ناصر الدولة بن حمدان [من أعمال الإسكندرية ومعه عرب من بني سيس وقطعة من الأتراك البغدادية، واجتمع مع المشارقة][1]، والتقى بالعبيد يوم الخميس ثالث ربيع الأول في موضع يعرف بالكوم، فقتل من العبيد ألف رجل، وهزم الباقين، [ولولا أن الليل هجم ما أبقى من العبيد أحداً، وقد عادت مصر مثل ما كانت بغداد، عند دخول عسكر خراسان إليها من الخوف والنهب والقتل]، وتردَّدت الرسلُ في إصلاح ذات البين، فتمَّ.

وفي رمضان ورد كتاب نظام الملك، وأن السلطان أوغل في بلاد الخزر، وبلغ فيها مواضع لم تجرِ العادةُ ببلوغها، وفتح بلداً عظيماً، وقتل فيه نحو ثلاثين ألفاً، وسبى ما يُوفي على خمسين ألف مملوك، وغنم غنائم لا تُحصى، وقد عاد منصوراً، ونزل على آبى ـ وهي أول أعمال الروم ـ مُحاصراً لها، ولن يتأخَّر فتحُها له إن شاء الله تعالى، وأنه وصل إليه ما بدأ من أبي أحمد النهاوندي فيما يتعلَّق بالخليفة، وأنكره ورسم له بالتذلُّل أن لا يخرج عن مراسم الخليفة، ويكون طوعَ أمير المؤمنين، ولا يجري على العوائد السالفة، ثم بعد أيام وصل كتاب السلطان بالفتح، فجلس الوزير في بيت النُّوبة، وقُرِىء، وخرج من الخليفة ما دلَّ على الوزير، ولم يحضر رئيس العِراقَين، ثم حضر من بعدُ ببيت النُّوبة، وخرج الوزير إليه، فقام وخدمه، وزاد في التودُّد لما ورد من الإنكار عليه، وأنهى خبره، فخرج ما يدلُّ على تطييب قلبه، فقام وقبَّل الأرض، ثم واصل الخدمة، ورفع يده عما كان اعترضه، وفي كتاب الكامل نقيب النقباء أبي الفوارس، وكان قد شهد هذا الفتح، قال: شاهدتُ من هذا البلد المذكور منظراً هائلاً، وأنه لا يخطر بالبال فتْحُه، ولا يُذكر أنَّ أحداً من الملوك قصَدَه، فإنَّ ثلاثة

(١) في (خ) و(ف) بدلاً منها: إلى الإسكندرية.

أرباعه على نهر الترس الكبير، وربعه الآخر على خندق قد استخرج من الترس، والماء ينزل إليه من عُلوٍّ بعيد بدويٍّ شديد، وله جِريةٌ قويةٌ، بحيث لو طُرِحَتْ فيه الحجارة العظيمة لدحاها وقطعها، والطريق إلى بابه على قنطرة بإزائه وأسواره من الحجر الأصم الشديد، ومراميهِ بعيدة.

وقيل: إنه يشتمل على سبع مئة ألفِ دار، وألفِ بِيْعة ودير، وليس عليه محالٌّ ولا موضعُ قتال ولا فيه مطمعٌ حتى جاء من الله ما ليس له مَدْفَعٌ ممَّا خالف المعهود، ودلَّ على فعل المعبود، واستحرَّ القتلُ وكثُر، وملَّ العسكر وضجر، فأحجموا عن القتال؛ لأن الظفر لم يخطر لهم ببال، ولم يمضِ إلا ساعةً حتى انسلخ من السُّور قطعةٌ من غير مُوجِبٍ أوجبَه، ولا فِعْلٍ به أوهنَه، فدخل العسكر البلد، فقتلوا أهلَه، ونهبوه وأحرقوه وأخربوه، وأسروا من سلِمَ من السيف وتملَّكوه، وانسدَّت الطرقات بالقتلى، حتى لم يكن مسلكٌ إلا عليهم، ولم يخْلُ عددُ الأسارى عن خمس مئة ألف إنسان، وأحببتُ أن أدخلَ البلد وأشاهدَه، فاجتهدت أن يكون لي طريقاً على غير القتلى، فلم يكن، وحدَّث أنه وُجِدَ في بعض البِيَع إجانةُ بِلَّور تَسَعُ راويةً من الماء، فكسروها واقتسمها العسكر، ووُزِنَتْ قطعةٌ منها فكانت ثماني عشر رطلاً.

وفي رمضان لمَّا هرب بدر بن مهلهل أمير الجيوش من دمشق ولَّى المستنصر حيدرة ابن بروا، ثم صرفه عنها بدري المستنصري، ثم صُرِف عنها، فعاد إلى الرملة.

وفيها جرَتْ مراسلةٌ بين قاروت بك وأخيه ألب أرسلان، وذلك أنه لمَّا مَلَكَ ألب أرسلان الريَّ وبلاد عمه، واستولى على الخزائن والأموال، وكان قاروت بك على أصبهان رجع إلى كرمان، وخطب لألب أرسلان ولنفسه من بعده بشيراز: ولي فيها حصةٌ معلومةٌ، ويدي خاليةٌ من المال، وقاصرةٌ عمَّا أحتاج إليه ومن معي من الرجال، فإن أنصفتني فيما يقتضيه دينك ومروءتك فهو المعهود منك، وإن لم تفعل شكرتُك ووكلتُك إلى الله تعالى، ورضيتُ بجميل الرأي منك، وقد كان بينهما منافسةُ الأخوة، فندب ألب أرسلان أختهما كوهر خاتون زوجة الأمير أريسيغي، وكان يحبُّها حباً شديداً، فأراد إرسالها إليه في أمر لا يظهر خبرُه، فقيل له: قد مضى إلى كرمان لمَّا

حلَّتْ فارس لبُعد قاروت بك عنها، وكتب فضلويه إلى ألب أرسلان بالانتماء إليه، وخطب له، وطلب منه النجدة، وكان فضلويه مقيماً بِنَسا، وكتب إلى هزارسب وهو بالأهواز يطلب منه النجدة؛ ليستعين بها على أخذ شيراز، فأنفذ إليه النجدة من الديلم والأتراك، فنهب أعمالَ شيراز، فأعلم قاروت بك بعد أخيه إلى بلاد الروم ومسير فضلويه إلى شيراز، فسار نحوه وواقعه على بابها، فانهزم فضلويه بعد أن قُتِلَ معظمُ أصحابه، وعاد مفلولاً، ودخل قاروت بك إلى شيراز منصوراً، ووردت الكُتب بعقد بغداد على أبي سعيد الفاسي مدة ثلاث سنين بخمس مئة ألف دينار، وعزل رئيس العراقَين عنها، فراسل الخليفة بالتنصُّل مما فعله في الإقطاعات ومع الوزير والحاشية، فخرج الجواب: لم تزل نعمة الله عندنا في كلٍّ من مرق عن الطاعة، واطَّرح رسومَها، إن ردَّه الله إليها خاضعاً عابداً، وسائلاً العفو لائذاً، فليسكن روعه وليطيب قلبه مما يدرك غايةً فيما يعود عليه بصلاحه شأنُه، ووصل سلطانه، وأمر رئيس العراقَين بردِّ ضياع الوزير وإقطاعه وإقطاع الحاشية وما أخذ منها، فردَّ الجميع.

وفي رابع ذي القعدة ورد تابوت موفق الخادم، فخرج الخليفة، فصلَّى عليه، وحزن عليه، وحُمِل إلى الرُّصافة، وعُمِلَ له العزاء ثلاثة أيام، فأُعطي الأميرُ عُدَّةُ الدين ما خلَّفه.

وفي ذي القعدة ورد الكامل أبو الفوارس والتميمي وأبو سعيد الفاسي من عند السلطان، فتقدَّم الخليفة بالدخول إلى منازلهم ليلاً؛ استيحاشاً لموفق الخادم وغمًّا عليه، وكان تألَّم لأجله؛ لأنه كان دَيِّناً عفيفاً صالحاً ناصحاً، وأما أبو سعيد فرأى أن لا يُوحَش، فخرج الحجَّاب والخدم للقائه، فلمَّا وصل إلى باب النُّوبي نزل وقبَّل العتبة.

وفي سلخ ذي القعدة خلع الخليفةُ على الشريف أبي المعالم المعمر بن محمد بن عبيد الله العلوي في بيت النُّوبة العمامة والدرَّاعة المُذهَبتين، وردَّ إليه نقابةَ الطالبيين ورعايةَ الحاجِّ والمظالم، وقُرِىء عهدُه، ولُقِّب بالطاهر ذي المناقب.

وفي هذا الوقت عاد السلطان من بلاد أرمينية، فلم يبلغه أهلُها على الوجه، وغلَّقوا دكاكينهم، ولم يُبايعوا الجند، فضاق عليهم الشيء، وشكوا إلى السلطان، وكانوا قد استطالوا وقتلوا عميد بن طُغْرُلْبَك على ما تقدَّم ذِكْرُه، فأمر السلطانُ العسكرَ بالنزول في

مساكنهم وإكرامهم، فدخلوا البلد واستأمنوا، واستباحوه ونقضوا أخشابه، وقتلوا جماعةً من الأشرار، وانهزم الباقون، وبعث السلطان من هَمَذان بُرْشُق الخادم إلى هزارسب يحمل ما عليه من الضمان، واستصحاب صدقة بن منصور المعتقل عنده، فإن فعلَ وإلَّا قصدَه السلطان، وكان مقلِّد أخو صدقة وولدُه ليث بن صدقة قد خرجا مع الخِلَع إلى ألب أرسلان، وسألا شفاعته في صدقة، فوعدهما بذلك، فلمَّا رجع الرسل إلى بغداد لم يرجعا، وأقاما على باب السلطان، وسار الحاجب إلى هزارسب وهو بخوزستان، فأجابه بالسمع والطاعة، وأن يُطلِقَ صدقة، وكان السلطان قد أخذ قُمْ وقاشان من الأمير أبي علي بن الملك أبي كاليجار بن بويه، وأقطعه في البصرة من جملتها بخمسين ألف ألف دينار، وبعث به إلى البصرة، وكانت البصرة في يد هزارسب، فلمَّا بلغَتْه الرسالة في ذلك اليوم لم يُفرِجْ عن البصرة، وقال: ما فعلتُ ما يُوجِبُ كسر جاهي. ولم يبقَ أحدٌ من الأطراف إلَّا وقد أجري على ما في يده، فلم أُحرم من دونهم، وأشار بأن الأمير أبا علي لا يمكن من المقام بالبصرة، فإنها بلدُ أبيه وبلدُه من بعده، وأهلُها له مُحِبُّون، وربما تمَّ منه ما يصعب تلافيه، وورد على السلطان بباب هَمَذان أبو العباس فضلويه بن علويه الشوابكاري لما اتصل عليه من قاروت بك من الغارات والهزائم وقتل أصحابه، وأخذ البلاد منه، فخلع السلطان عليه الخلع السنية، وأكرمه وقرَّر معه أنه يأخذ بلاد فارس، وينيب فضلويه فيها. وقيل: إنما ورد على السلطان في أول سنة سبع وخمسين، وفيها قصد مسلم بن قريش هَمَذان ودخل على نظام الملك، وتعلَّق بذيله، فأصلح حالَه مع السلطان، وأعطاه الأنبارَ وأماكنَ، ورجع إلى بغداد، فالتقاه الوزير، وقبَّل عتبة باب النُّوبي، وخلع عليه الخليفةُ، ورضي عنه، وسار إلى بلده.

وفيها تُوفِّي

الحسن بن عبد الله بن أحمد[1]

أبو الفتح، الحلبي، الشاعر، ابن أبي حصينة، كان فاضلاً شجاعاً فصيحاً، يخاطَبُ بالأمير، ومن شعره: [من الوافر]

أتـجـزَعُ كُـلَّـمـا خـفَّ الـقَـطِـيـنُ وشـطَّـتْ بـالـخَـلـيـطِ نَـوًى شَـطُـونُ

(١) تاريخ دمشق ١٣/ ١٢٠-١٢٢ .

وهُمْ صرموا حبالكَ يومَ سلْعٍ ... وخانكَ منهمُ الثقةُ الأمينُ
تسَلَّ عنِ الحِسانِ وكيفَ تسلُو ... وبينَ ضُلوعِكَ الداءُ الدفينُ
وفي الأظعانِ من جُشَمِ بن بكرٍ ... ظباءٌ حشوُ أعيُنِها فُتُونُ
عليهنَّ الهوادجُ مُطبقاتٌ ... كما انطبقتْ على الحَدقِ الجُفونُ
جلبن لنا برامَةَ كُلَّ حينٍ ... ألا إنَّ الحوائِنَ قد تحينُ
عشيَّةَ مِسْنَ غير مصَنَّعاتٍ ... كما ماسَتْ منَ الأيكِ الغُصونُ
ضنيناتٌ عليك وكيف يُرجى ... زوالُ يدٍ وصاحِبُها ضنينُ
جُنِنَّا بالحِسان البِيضِ دَهراً ... وإنَّ هَوى الحِسان هُوَ الجُنونُ
كأنَّ أُمامَةً حلفت يَمِيناً ... لنا ألَّا يَصِحَّ لها يمينُ
أغِيٌّ بَعدَ ما ذهبَ التصابي ... وشابَتْ بعد حُلكَتِها القُرونُ
وعندكَ يا ابنَ وثَّابٍ جميلٌ ... فإن تُشكَرْ فَمَمحُوقٌ قَمِينُ
فتًى أولاكَ مكرُمةً وفَضلاً ... وعَزَّ به حماكَ فما يهونُ
أبا الصَّمصامِ صُنْتَ عليَّ جاهي ... ومثلُكَ من يَذُبُّ ومَن يَصونُ
ولولا أنت لاتَّسَعَتْ خُروقٌ ... على ما في يدي وجرَتْ شُجونُ
ولكن أنت لي وزرٌ[1] منيعٌ ... وحِصنٌ أستجِنُّ به حَصِينُ

وقال : [من الكامل]

ريمٌ بِرامَةَ لا يصيدُ بضعفِهِ ... إلَّا الرِّجال الصِّيد عند صُدودِهِ
أهوى الدُّجى من أجلِ أنَّ هِلالَهُ ... كسِوارِهِ ونُجومَهُ كعُقودِهِ

وقال : [من الطويل]

شرطتُ عليهنَّ الوفاء فمُذْ بَدا ... بياضُ عِذاري للعذارى مضى الشَّرطُ
فلا أبعدَ اللهُ المشيبَ فإنَّهُ ... مَطيّةُ حُكمٍ في الخطيئَةِ لا يخطُو

وكانت وفاته بحلب[2].

---

(١) الوِزْر: السلاح. المعجم الوسيط (وزر).
(٢) الترجمة دون الشعر الأخير في تاريخ دمشق ١٣/ ١٢٠ ـ ١٢٢ .

[وفيها تُوفِّي]

عبد الواحد بن علي بن بَرْهان[١]

أبو القاسم، النَّحْوي، كان عالماً فاضلاً بعلوم شتى، منها علم العربية والنحو، ولولا شراسة أخلاقه لكانت له آثارٌ باقية، وكتبٌ مرويَّة، ولم يلبس سراويلَ قطُّ، ولا يُغطِّي رأسَه، ولا يقبل لأحدٍ عطاءً، وهو القائل: من قال: إن [الباء][٢] للتبعيض، فقد جاء أهل اللغة بما لا يعرفونه. وتوفي ببغداد في جمادى الأولى وقد أناف على الثمانين، وقد طعن فيه [أبو الوفاء علي] بن عقيل [فقال: كان يختار مذهب المرجئة من المعتزلة].

وقال محمد بن عبد الملك الهَمَذاني: إنه كان يميل إلى المُرْدِ الصِّباح ويُقَبِّلهم عن غير ريبة.

[وفيها تُوفِّي

علي بن الحسن بن محمد

أبو الحسن، الصَّيداوي، من أهل صيدا، ذكره الحافظ ابن عساكر[٣] وقال: كان يتردَّد من صيدا إلى دمشق، فقُتل في وادٍ بأودية صيدا يُقال له: الحريق، فيه أُتْرُجٌّ وليمون، حدَّث عن أبيه الحسن وغيره، وروى عنه الخطيب، وهو روى إلى الأوزاعي أنه قال: خرجت من دمشق أريد البيت المقدس، فوافقتُ يهودياً، فلمَّا وصلنا إلى بحيرة طبرية استخرج منها ضفدعاً وشدَّ في عنقه خيطاً، فصار خنزيراً، فمضى إلى طبريَّة، وباعه من النصارى، وجاء بطعام، فسِرْنا غير بعيد، وإذا بالقوم أدركونا، فقال: أحسبه قد صار ضفدعاً، فحانت مني التفاتةٌ، وإذا ببدن اليهودي ناحيةً ورأسه ناحيةً أخرى، فلمَّا نظروا إليه عادوا خوفاً من السلطان، وجعل الرأسُ يقول لي:

---

(١) ينظر السير ١٨/ ١٢٤ .

(٢) يعني قولَه تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ المائدة: ٦ ، وما بين حاصرتين زيادة ضرورية من المغني لابن قدامة ١/ ١٢٦ ، والكافي له أيضاً ١/ ٦٤ ، وكشاف القناع ١/ ٢٢٥ ، وعمدة القاري ٣/ ٧١ .

(٣) تاريخ دمشق ٤١/ ٣٣٨ـ٣٣٩ .

رَجَعوا؟ رَجَعوا؟ قلت: نعم. فعاد الرأس إلى البدن، فقلتُ: واللهِ لا رافقتُكَ بعد اليوم. وقد ذكرنا الحكاية في ترجمة الأوزاعي.

وفيها تُوفِّي

محمد بن علي بن يوسف[١]

أبو عبد الله، الطَّرَسوسي، ويُعرف بابن السَّنَّاط، إمام جامع دمشق، كان قارئاً للقرآن، ملازماً على الصلاة، حافظاً، سمع الكثير، وتوفي بدمشق، حدَّث عن محمد ابن أبي نصر وغيره، وروى عنه الحسن بن أحمد الكرماني وغيره، وكان صدوقاً صالحاً].

السنة السابعة والخمسون وأربع مئة

فيها في المُحرَّم حضر من عند ألب أرسلان مَنْ أخبر عنه أنه سار من هَمَذان إلى أصبهان في رابع عشر ذي الحجة، فكانت مدة إقامته بها أربعين يوماً، وأن فضلويه وصل إليه في هَمَذان فأكرمه وخلع عليه الخِلَع الجليلة وعلى كل من ورد من صحبته، وأعطاه الخيم والخركاوات والخيل بمراكب الذهب والصاغات وشيئاً كثيراً، وأمره أن يضرب الطبول على بابه في أوقات الصلوات، ورتب جماعة من العسكر للمسير معه إلى شيراز، وصرف من بها من أصحاب أخيه قاروت بك إلى أن يلحق بهم السلطان، وفي خامسه سار هزارسب مع بُرْشُق الحاجب مظهراً لما[٢] قصد ألب أرسلان، وقد بلغه مسيرُه إلى شيراز، واستصحب معه حملاً.

وفي المُحرَّم وصل ألب أرسلان إلى شيراز، وكان أخوه قاروت بك بها، فعلم، فأنفذ ثقله وحرمه وأمواله نحو كرمان، وتحصَّن بقلعة على جانب البحر يقال لها: البئر، فثار به بعض عسكره، واستأمنوا إلى ألب أرسلان فأحسن إليهم، وبعث إلى طريق كرمان لأجل رحيل قاروت بك، فأخذه وكان على خمسة آلاف جمل وبغل،

(١) تاريخ دمشق ٥٤/ ٤٠١ـ٤٠٢ .

(٢) تحرفت في الأصلين (خ) و(ف) إلى: فلما.